ظاهرة الوقف والابتداء الصوتية وتوجيهها في القرآن الكريم

– توجيه ما استشكل على الغُمَاري من الوقف الهبطي –

The phenomenon of vocal stopping and commencement, and guidance in the Holy Quran - directing with problem found by EL Ghamari for habti stopping.

[1] **الجابري منصوري**. ، جامعة الأغواط (الجزائر) d.mansouri@lagh-univ.dz

[2]: **عائشة عبيزة**. ، جامعة الأغواط (الجزائر)، ab.abiza2015@gmail.com

تاريخ الارسال .2019-10-31 تاريخ القبول .2019-11-09 تاريخ النشر 2019-12-15

الملخص

يعتبر الوقف والابتداء في القرآن الكريم أحد الظواهر التي لها دور كبير في تحديد المعنى وإبرازه من خلال قطع الصوت واستئناف إنتاجه؛ لذا اعتنالعلماء بالوقف والابتداء أيّما اعتناء وأدرجوه ضمن علم التجويد والقراءة، وألفوا فيه كتبا كثيرة، ومنها كتاب (تقييد وقف القرآن الكريم) لابن أبي جمعة الهَبطي، حيث تلقّاه الناس بالقبول، وانتشر العمل بما جاء فيه في بلاد المغرب وإفريقية، ولا يزال العمل به إلى اليوم، ورغم هذا فإنه لم يسلم من انتقادات بعض العلماء، ومن العلماء الذين انتقدوه بشدّة ابن الصديق الغُماري، حيث وصف بعض الوقوف الهبطية بالضعف؛ لذا فإننا نسعى من خلال هذا البحث إلى تبيين بعض الأسرار المعنوية والتركيبية لها، معتمدين في ذلك على ما جاء في كتب الوقف والتفسير والإعراب.

كلمات مفتاحية:الصوت؛ الوقف والابتداء؛ النحو؛ المعنى؛ الهبطي؛ الغُماري.

Abstract

Stopping and commencement in the Quran is one of the phenomena that has a major role in determining of the meaning and highlighting through cutting sound and resuming its production, so the scholars took care of stopping and commencement, and they included it in the science of tajwid and reading, we can cite a book (restricting of stopping of the Holy Quran) by IbnAbiJumah al-Hbiti, Where people accepted it, The work has spread in the Maghreb and Africa, and it is still working to this day, although it did not escape the criticism of some scientists, and scientists who strongly criticized him is Ibn al-Siddiq al-Ghammari, where he described some of the habatiens stand as weak.Therefore, we seek through this research to identify some of the moral and structural secrets, relying on what is stated in the books of stopping, interpretation and expression.

Keywords :sound ; stopping-commencement ; Grammar ; sense ; el-habti ; el-Ghammari.

المؤلف المرسل: الجابري منصوري، **الإيميل**: d.mansouri@lagh-univ.dz

1.مقدمة:

يُعتبر علم الوقف والابتداء من أشرف العلوم لأنه يتعلق بالقرآن الكريم،وهو علمذو أهمية بالغة،فبفضله "يعرف بين المعنيين المختلفين، والنقيضين المتباينين، والحكمين المتغايرين"[1].

ونظرا لأهميته كان محلّ عناية الرسول وصحابته،كما اعتنى به العلماء أيّما اعتناء، حيث اعتنى به المتقدمون والمتأخرون، وألفوا فيه كتبا كثيرة.

والجدير بالذكر أنّ معظم من ألّف في الوقف والابتداءكان من كبار القراء والنحويين،ومن بين أقدم الكتب التي وصلتنا كتاب(الإيضاح في الوقف والابتداء) لابن الأنباري، وكتاب (القطع والائتناف) لابن النحاس، وكتاب (المكتفى في الوقف والابتدا) لأبي عمرو الداني، وكتاب (المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء) لزكريا الأنصاري، وكتاب (منار الهدى في بيان الوقف والابتدا) للأشموني. ومن المغاربة أبي جمعة الهبطي الذي انتشر وقفه وبه العمل في بلاد المغرب وإفريقية، غير أنه لم يسلم – رغم هذا الانتشار الواسع – من انتقادات شديدة لاختياراته ومن ابن الصديق الغماري خاصة في كتابه " منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي". فما هي الأسرار المعنوية والتركيبية في هذه الوقوفات المنتقدة والتي استشكلت على ابن الصديق الغماري؟

2. تعريف الوقف والابتداء:

الوقف في اللغةهو"الحبس والمنع"[2]، أو "الكف عن الفعل والقول"[3].

وعرفوه اصطلاحا بأنه "عبارة عن قطع الصوت على الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة"[4].

ولما كان الوقف ههنا قطعا لعملية إنتاج الصوت اللغوي للفظة القرآنية؛ فإن الابتداء حتما هو استئناف ذلك الإنتاج الصوتي اللغوي.

ويظهر إلى جانب مصطلح الوقف مصطلحان آخران عند علماء التجويد والقراءةوهما:"القطع والسكت"، ومن بين أهم الفروق بين الوقف والقطع والسكت هو أن[5]:

– الوقف والسكت يكونان بنية استئناف القراءة، والقطع يكون بنية الإعراض عنها والانصراف إلى غيرها.

- الوقف والقطع يكونان بقطع الصوت دون النَّفس، ولا تنفس في حالة السكت.

- السكت عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة.

3. علاقة الوقف والابتداء بعلم النحو:

ليس غريبا أن يصنّف النحاة في الوقف والابتداء؛ لأنّه "من الموضوعات التي تعتمد فيما تعتمد على النحو*"[6]، فالعلماء "عندما حدَّدوا المواضع التي يوقف عليها كانوا يقرنون ذلك بتعليلاتهم، وأكثر ما تتَّصل تلك التعليلات بقواعد النحو وأحكامه"[7]، لذا فإنّ صاحب الوقف والابتداء"يحتاج إلى معرفة بالنحو وتقديراته"[8]، وفي هذا الشأن يقول ابن الجزري:«لا يجوز الوقفعلى المضاف دون المضاف إليه، ولا على الفعل دون الفاعل، ولا على الفاعل دون المفعول، ولا على المبتدأ دون الخبر، ولا على نحو كان وأخواتها، وإن وأخواتها دون أسمائها، ولا على النعت دون المنعوت، ولا على المعطوف عليه دون المعطوف، ولا على القسم دون جوابه، ولا على حرف دون ما دخل عليه، ولا على الرافع اللفظي دون المرفوع، ولا على الناصب دون المنصوب، ولا على الجارّ دون المجرور، ولا على الجازم دون المجزوم، ولا على المميِّز دون المميَّز، ولا على المفسِّر دون المفسَّر، ولا على ذي الحال دونها، ولا على المستثنى منه دون المستثنى، ولا على المشار به دون المشار إليه، ولا على ذي علة وسبب دونهما»[9]. كما "لا يجوز أن يبتدئ بالفاعل دون فعله ولا بالوصف دون موصوفه. ولا باسم الإشارة دون المشار إليه. ولا بالخبر دون المبتدأ ولا بالحال دون صاحبها. ولا بالمعطوف عليه دون المعطوف ولا بالبدل دون المبدل منه ولا بالمضاف دون المضاف إليه. ولا بخبر كان وإنّ وأخواتهما دون كان وإنّ وأسمائهما. وهكذا إلى آخر المتعلقات"[10].وبهذا الصدد يقول النووي:«ينبغي للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض. وأن يقف على الكلام المرتبط»[11].

4. الوقف والابتداء عند أبي جمعة الهبطي :

قبل الخوض في اختيارات أبي جمعة الهبطي وما استشكل على ابن الصديق الغماري فيها، وقبل محاولة توجيهها والبحث في أسرار تلك الاختيارات يجدر بنا التعريف بالشيخ الهبطي أولا.

1.4 تعريف موجز بالشيخ الهبطي:

هو أبو عبد الله الهَبَطي، ولد في حدود منتصف القرن التاسع الهجري في مدشر أهباطة، من قبيلة سماته، إحدى قبائل الجبل بشمال المغرب، ولذا جاءت نسبته هكذا: الهَبَطي السماتي، ويرى بعضهم أنّ الهبطي نسبة إلى جبال الهبط المعروفة. تعلّم الهبطي في الكتّاب، ثم رحل إلى فاس وأنهى بها دراسته، وتلقى الروايات والقراءات والعلوم الشرعية والعربية وغيرها، ومن شيوخه: أبو عبد الله غازي الذي ربما كان آخر من لقيه بفاس، ومن أشهر تلاميذه: أبو عبد الله محمَّد بن علي بن عدة الأندلسي وغيره من الذين أشاعوا مذهبه في الوقف وقيدوه عنه حتى اكتسح أقطار أفريقية كلها. توفي بفاس سنة ثلاثين وتسعمائة 930هـ، ودفن في روضة الزهيري بطالعة فاس[12].

2.4موقف ابن الصديق الغماري من الوقف الهبطي:

ومن المغاربة الذين ارتبط اسمهم بعلم الوقف والابتداء الشيخ محمد ابن أبي جمعة الهَبَطي، حيث انتشر وقفه في بلاد المغرب،"ويسمى بـ:(أوقاف الهبطي)، وقد طُبع في كتاب بعنوان (تقييد وقف القرآن الكريم)، وسمي بالتقييد؛ لأنه كتبه عنه بعض تلاميذه"[13].حيث بنى الهبطي مذهبه"على مراعاة الإعراب والمعنى في الوقف والابتداء"[14]، وهو مذهب نافع، حيث"كان نافع يراعي محاسن الوقف والابتداء بحسب المعنى"[15].

ورغم انتشار الوقف الهَبَطي في بلاد المغرب، إلا أنه لم يسلم من الانتقادات والاعتراضات، وخاصة من قبل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه (منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي)، حيث اعترض عليه في عدّة مواضع، وضاق به ذرعا حتى قال:«... فدلّ على أنه لا يعرف النحو، لأنه فصل بين المبتدأ والخبر، وصير المبتدأ بلا خبر »[16].

5. التوجيه النحوي والدلالي لما استشكل على ابن الصديق من الوقف الهبطي:

سنحاول هنا توجيه ما استشكل على ابن الصديق الغماري من الوقف الهبطي، وسنكتفي بما جاء في سورة البقرة.

- قوله تعالى: { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [البقرة: 53].

وقف الهبطي على{الكتاب}؛ وابتدأ بـ{والفرقان}؛ وهذا مما استشكل على ابن الصديق، فانتقده بقوله:« وقف الهبطي على الكتاب، ولا قائل به »[17]، وحجّته في ذلك أنّ الهبطي "فصل بين المتعاطفين بلا ضرورة"[18].

لقد أجمع المفسرون على "أنّ الكتاب هو التوراة"[19]، واختلفوا في {الفرقان} إلى أقوال، منها[20]:

أحدها: أنه النصر.

والثاني: الواو صلة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب الفرقان، والواو قد تزاد في النعوت كقولهم: فلان حسن وطويل.

والثالث: الفرقان هو الكتاب، أعيد ذكره باسمين تأكيدا.

والرابع: انفراق البحر له حتى صار فرقا.

والخامس: أنه سائر الآيات التي أوتيها موسى صلى الله عليه وسلم؛ لأنها فرقت بين الحق والباطل.

والسادس: أنه القرآن. ومعنى الكلام: لقد آتينا موسى الكتاب، ومحمدا الفرقان، ذكره الفرّاء، وهو قول قطرب.

مما سبق ذكره يمكن القول: إنّ الهبطي كان يقصد بالفرقان هنا القرآن الكريم، ويكون معنى الكلام: وأعطينا محمدًا الفرقان. والهبطي في هذا له سلف، حيث "نقلت معظم الكتب هذا القول عن قطرب والفراء"[21]، وفي هذا الشأن يقول الفراء نفسه:« وقوله:{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ففيه وجهان:

أحدهما: أن يكون أراد {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } يعني التوراة، ومحمدا صلى اللَّه عليه وسلم الفُرقان، لعلَّكم تهتدون. وقوله:{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} كأنه خاطبهم فقال: قد آتيناكم علم موسى ومحمد عليهما السلام لعلكم تهتدون؛ لأنّ التوراة أنزلت جملةً ولم تنزل مُفرّقة كما فُرّق القرآن؛ فهذا وجه.

والوجه الآخر: أن تجعل التوراة هدى والفرقان كمثله، فيكون: ولقد آتينا موسى الهدى كما آتينا محمّدا صلى اللّه عليه وسلم الهدى. وكُلُّ ما جاءت به الأنبياء فهو هُدًى ونورٌ»[22].

هذا، وقد ضعّف بعض العلماء قول الفراء وقطرب، فـ"قيل إنّ هذا غلط أوقعهما فيه أنّ الفرقان مختصٌّ بالقرآن وليس كذلك"[23]، وفي هذا الشأن يقول النحاس بعد أن ذكر قول الفراء وقطرب:« وهذا القول لا يصح على قول أهل التأويل ولا في الظاهر ولا في العربية »[24]. ويقول الراغب الأصفهاني:« الكتاب والفرقان: اسمان لشيء واحدٍ لكن يقالان باعتبارين مختلفين أما الكتاب: فلجمع الأحكام المتفرقة فيه، وأما الفرقان: فلكونه مفرقا بين الحق والشبهة، وبين الأحكام المختلفة، وأتى باللفظين تنبيها على تضمين التوراة للمعنيين، وهذا أصح من قول من قال: تقديره: وإذ آتينا موسى الكتاب ومحمدا الفرقان»[25].

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإنّ ما ذهب إليه قطرب والفراء مخالف لسياق الآيات؛ لأنّ الآيات تتحدّث عن موسى وبني إسرائيل، إلّا أنّه يوجد من المفسرين من"خرّج هذه الآيات كلها على محمد صلى الله عليه وسلم"[26]، وعلى"جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة في زمن النبي صلّى الله عليه وسلّم"[27].

مما سبق ذكره يمكن القول إنّ في وقف الهبطي على{الكتاب} تذكيرا ليهود المدينة أنّ الله أنزل على أسلافهم التوراة التي يجدون فيها صفة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أنّ في الابتداء بـ{والفرقان} تذكيرا لهم بنعمة كبيرة، ألا وهي "إدراكهم مدّة النبي صلّى الله عليه وسلّم"[28]، وشهودهم إنزال القرآن عليه، "فكأنه خاطبهم فقال: قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد صلى الله عليه وسلم وعلم سائر الأنبياء"[29]؛ ذلك لأنّ قوله تعالى: {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}عطف على ما ذكر من النعم"[30].

وبهذا الذي ذكرناه يتكشف لنا بجلاء أنّ الهبطي لم يكن مبتدعا في هذا الوقف والابتداء، فقد قال به الفراء وقطرب، إلا أنّ هذا مما يخفى على عامة الناس، لأنه من المعاني الخفية.

- قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ } [البقرة: 96].

من الوقوف التي انتُقد فيها الهبطي وقفه على{حياة}؛ حيث انتقده ابن الصديق بقوله:« ووقف الهبطي على لفظ حياة، وهو خطأ لم يختص به، فقد قال بعض المفسرين: المراد بالذين أشركوا المجوس، كانوا

يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان، وضعّفه ابن جزي »[31]. واستدل ابن الصديق على ذلك بأدلة منها[32]:

الأول: أنّه موافق لسياق الآيات السابقة واللاحقة، ومراعاة السياق واجبة، غفل عنها كثير من المفسرين، فوقعوا بسبب ذلك في أغلاط نبهت على بعضها في قصة داود عليه السلام، وهذا الموضع منها وإن لم أنبه عليه هناك، فأي ارتباط بين تعجيز اليهود وتكذيبهم في دعواهم، وبين قول المجوس لملوكهم: عش ألف سنة؟

الثاني: أنّ حمل{ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } على الابتداء يحتاج إلى تقدير موصوف محذوف، وهو: قوم أو ناس والأصل عدم التقدير، ولا ضرورة تدعو إليه في هذا الموضع.

الثالث: أنّ حمل ذلك الجملة على الابتداء يوقع في الكلام اضطرابا، وعدم تناسب، إذ بينهما سياق الكلام على اليهود، ينتقل فجأة إلى المشركين، ثم يعود إلى اليهود أيضا، وكلام الله تعالى يمشي في تناسق وانتظام فهو منزه عن هذا الاضطراب.

ذكر علماء الوقف والابتداء أنّ الوقف على{حياة}"تام عند نافع"[33]. وذهب الزّركشي أنّ"هذا من وقف المعانقة"[34].

{ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } فيه قولان مشهوران[35]:

أحدهما: أن يكون عطفا على ما قبله فيوصل به، والمعنى أنّ اليهود أحرص على الحياة من الناس ومن الذين أشركوا، وخصّ الذين أشركوا بالذكر بعد دخولهم في عموم الناس لأنهم لا يؤمنون بالآخرة بإفراط حبّهم للحياة الدنيا.

والآخر: أن يكون ابتداء كلام فيوقف على ما قبله، ابتدأ بواو الاستئناف، وأضمر لـ{يودّ} اسما تقديره: ومن الذين أشركوا قوم يودُّ أحدهم أو من يودُّ أحدهم.

مما ذكرناه آنفا يتبيّن لنا أنّ الهبطي من خلال هذا الوقف والابتداء من أصحاب القول الثاني. ولقائل أن يقول: إنّ الكلام إنما هو في اليهود، وعلى وقف الهبطي يخرج الكلام عنهم، ويكون غير موافق لسياق

الآيات، وفي هذا الشأن يقول الرازي:« والأوّل أظهر لأنّ الكلام إنما هو في اليهود، وعلى الثاني يخرج الكلام عنهم »[36]. ويقول ابن الصديق:« أنّ حمل تلك الجملة على الابتداء يوقع في الكلام اضطرابا، وعدم تناسب، إذ بينهما سياق الكلام على اليهود، ينتقل فجأة إلى المشركين، ثم يعود إلى اليهود أيضا، وكلام الله تعالى يمشي في تناسق وانتظام فهو منزه عن هذا الاضطراب »[37].

نعم، الظاهر أنّ هذا مخالف للسياق، ومراعاة السياق واجبة، لكن يمكننا توجيه هذا بما يلي:

– الابتداء بـ{ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } وإن كان"فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، ولا ضير في استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود"[38].

– أريد بـ{الذين أشركوا}اليهود لأنهم قالوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّه، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف[39].

– المعنى أنّ"اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك"[40]، وفي تقديمهم على الذين أشركوا "إيذان بتقدمهم عليهم في الحرص"[41].

مما سبق ذكره يمكن القول إنّ الهبطي لم يكن بدعا في هذا الوقف والابتداء، بل له فيه سلف من القراء والمفسرين والنحاة وأهل الوقف والابتداء.

- قوله تعالى: { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ } [البقرة: 180].

وقف الهبطي على{خيرا}، وهو"وقف تام عند نافع"[42]، غير أنّ ابن الصديق تعقّبه بقوله:« ووقف الهبطي على خيرا، ففصل بين الفعل وهو كُتب المبني للمجهول، ونائب الفاعل، وهو الوصية، وتصحيحه يحتاج إلى تقدير، فيه تكلف، وخروج عن الظاهر، لغير ضرورة ولا حاجة »[43].

يرى كثير من العلماء أنّ {الوصية} متعلقة بقوله:{كُتب}. لكن ما توجيه وقف الهبطي على{خيرا}؟ يمكن توجيه وقف الهبطي على{خيرا}، وابتدائِه بـ{الوصية للوالدين} بما يلي[44]:

–{الوصية} مبتدأ، والخبر محذوف، والتقدير: فعليكم الوصية. ويكون المرفوع بـ{كُتب}مضمرا، تدلُّ عليه الوصية، والتقدير: كتب عليكم الإيصاء.

-{الوصية} مبتدأ، و{للوالدين}خبره، ومفعول{كُتب}محذوف، أي: كُتب عليكم أن توصوا، ثم بيّن لمن الوصية.

- أن يكون نائب الفاعل الجار والمجرور الذي هو:{عليكم}، فنقول: لما أخبر أنه كُتب على أحدهم إذا حضره الموت إن ترك خيرا تشوّف السّامع لذكر المكتوب ما هو، فتكون الوصية مبتدأ، أو خبرا لمبتدأ على هذا التقدير، ويكون جوابا لسؤال مقدر، كأنه قيل: ما المكتوب على أحدنا إذا حضره الموت وترك خيرا؟ فقيل: الوصية للوالدين والأقربين هي المكتوبة، أو: المكتوب الوصية للوالدين والأقربين.

مما سبق ذكره يتبيّن لنا أنّ الهبطي لم يكن بدعا في هذا الوقف والابتداء، بل له فيه سلف من القراء والمفسرين والنحاة.

- قوله تعالى:ﭐ{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [البقرة: 210].

اختار الهبطي الوقف على{الغمام}، وهذا مما استشكل على ابن صديق، لذا تعقّبه بقوله:«...ووقف الهبطي على الغمام، ففصل بين الفاعل والمعطوف عليه، بلا داع ولا موجب »[45].

لقد اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: { فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ }، ولهم في هذا قولان مشهوران[46]:

الأول: أنه هو من صلة فعل الله، ومعناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وأن تأتيهم الملائكة.

والثاني: أنه من صلة فعل الملائكة، ذلك لأنّ في الآية تقديما وتأخيرا، وأصل الكلام أن يأتيهم الله والملائكةُ في ظلل من الغمام، فالرب يأتي كيف شاء، والغمام ظرف لإتيان الملائكة، وروي أنّ ابن مسعود قرأها كذلك.

ورجح الطبري الرأي الأول فقال:« وأولى التأويلين بالصواب في ذلك تأويل من وجه قوله:{في ظلل من الغمام} إلى أنه من صلة فعل الرب عز وجل، وأنّ معناه: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة"[47].

من خلال ما ذكرناه آنفا يتبيّن لنا أنّ الهبطي يختار القول الأول، أي أنّ:{ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ }هو من صلة فعل الله، وعليه يكون المعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، ثم ابتدأ بـ{الملائكة} على تقدير: وتأتيهم الملائكة. ولا يظهر هذا الترجيح في التفسير إلّا بهذا الوقف والابتداء، ولعلّ هذا ما كان يرومه الهبطي، وغفل عنه ابن الصديق وغيره.

ولا يفوتنا أن نقول إنّ هذا الوقف والابتداء جائز لمن قرأ {الملائكة} بالرفع، وهي قراءة نافع وغيره، ولا يجوز الابتداء بـ{الملائكة}لمن قرأها بالجر كـ"قراءة أبي جعفر"[48]؛ لأنها"عطف على ظلل أو الغمام"[49]، وهذا ما بيّنه زكريا الأنصاري بقوله:« ومن قرأ والملائكة بالجر عطفا على الغمام لم يقف على الغمام »[50]، ولعل هذا الذي ذكرناه هو غاية الهبطي من خلال هذا الوقف والابتداء.

- قوله تعالى:{ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ } [البقرة: 224].

وقف الهبطي على{أيمانكم}؛ ولهذا اعترض عليه ابن الصديق بقوله:«ووقف الهبطي على أيمانكم، ففصل بين النهي والمنهي عنه، ويمكن تخريجه على وجوه ضعيفة، يتنزه عنها كلام الله تعالى»[51].

لقد ذكر أهل العلم في إعراب:{ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا } عدة وجوه، منها[52]:

الأول: مبتدأ وخبره محذوف، أي البرُّ والتقوى والإصلاح أولى وأمثل، مثل: { طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ } [محمد: 21].

والثاني: محله النصب:

- أي لا تمنعكم اليمين بالله عز وجل البرّ والتقوى والإصلاح.

- معناه ألا تبروا، فحذف"لا"، كقوله تعالى:{ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا } [النساء: 176]، أي لئلا تضلوا.

- كراهة أن تبروا.

والثالث: هو في موضع خفض على قول الخليل والكسائي، التقدير: في أن تبروا، فأضمرت "في" وخفضت بها.

فعلى الوجه الأول يجوز الابتداء بـ{أن تبروا}، ويكون "الكلام منتهيا عند قوله:{لأيمانكم}"[53]. وهو اختيار الهبطي، وهذا الذي ذكرناه هو"قول الزجاج، وتبعه في ذلك التبريزي"[54]. ويرى أبو حيان أنّ معنى الآية عند الزجاج" أنها في الرجل إذا طلب منه فعل خير ونحوه اعتلّ بالله، فقال: عليّ يمين، وهو لم يحلف"[55]؛ وضعّفه بقوله:« وهذا الذي ذهب إليه الزجاج والتبريزي ضعيف، لأنّ فيه اقتطاع {أن تبروا} مما قبله »[56].

وبعد التأمّل في أقوال المفسرين تبيّن لنا أنّ معنى الآية الذي يناسب الوقف على{لأيمانكم}هو:"لا تجعلوا اسم الله تعالى هدفا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به في كل حقّ وباطل"[57]. أي: لا تكثروا الحلف بالله سبحانه وتعالى، ويقوّيه قوله تعالى:{ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ } [المائدة: 89] وقوله تعالى:{ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ } [القلم: 10].

مما سبق ذكره يمكن القول إنّ الهبطي لم يكن بدعا في هذا الوقف والابتداء، بل له فيه سلف.

- قوله تعالى: { وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا} [البقرة: 282].

يرى ابن الصديق أنّ "الوقف على اسم الجلالة، كما في مصحف حفص وقالون"[58]. وليس على{أن يكتب} كما فعل الهبطي.

في قوله تعالى: {كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ} قولان مشهوران[59]:

الأول: أن يكون متعلقا بما قبله، أي بـ{بأن يكتب} على أنه نعت لمصدر محذوف، أو حال من ضمير المصدر، والتقدير: أن يكتب كتابة مثل ما علمه الله تعالى، أو أن يكتبه، أي: الكتب، مثل ما علمه الله تعالى وبينه له بقوله سبحانه:{بالعدل}. ولا ينبغي أن يكتب غير الكتابة التي علمه الله إياها، ثم قال بعد ذلك: فليكتب تلك الكتابة التي علمه الله إياها.

والثاني: أن يكون متعلقا بما بعده، أي بـ{فَلْيَكْتُبْ}، والفاء غير مانعة لأنها صلة في المعنى، والتقدير: ولا يأب كاتب أن يكتب، وها هنا تم الكلام، ثم قال بعده: كما علمه الله فليكتب.

مما سبق ذكره يتّضح جليّا أنّ الهبطي من أصحاب القول الثاني، وهو أن يكون قوله تعالى:{كما علمه الله}متعلقا بـ{فليكتُبْ}، وهذا الذي اختاره الهبطي قد أشار إليه القرطبي بقوله:« ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاما عند قوله:{أن يكتب}، ثم يكون {كما علمه الله} ابتداء كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله:{فليكتب}»[60].

لكن ما الفرق بين القولين؟

يجيبنا الزمخشري عن هذا بقوله:« فإن قلت: أي فرق بين الوجهين؟ قلت: إن علقته بأن{يكتب}فقد نهى عن الامتناع من الكتابة المقيدة، ثم قيل له{فَلْيَكْتُبْ}، يعني: فليكتب تلك الكتابة لا يعدل عنها للتوكيد، وإن علقته بقوله{فليكتب}فقد نهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثم أمر بها مقيدة»[61].

وهذا ما يؤكده الألوسي بقوله:« والأمر بالكتابة بعد النهي عن الأداء منها على الأول للتأكيد، واحتيج إليه لأنّ النهي عن الشيء ليس أمرا بضده صريحا على الأصح فأكده بذكره صريحا اعتناء بشأن الكتابة، ومن هذا ذهب بعضهم إلى أنّ الأمر للوجوب ومن فروض الكفاية ... ، وأما على الوجه الثاني فلا تأكيد وإنما هو أمر بالكتابة المقيدة بعد النهي عن الامتناع من المطلقة»[62].

مما سبق ذكره يمكن القول إنّ الهبطي لم ينفرد بهذا الوقف والابتداء، بل له فيه سلف، وله توجيه نحوي ودلالي.

5. خاتمة:

وفي الأخير يمكننا استخلاص بعض النتائج، ومن أهمها:

- صنّف النحاة في علم الوقف والابتداء؛ لأنه من الموضوعات التي تعتمد فيما تعتمد على النحو.
- بنى الهبطي مذهبه في الوقف والابتداء على مراعاة الإعراب والمعنى، وهو بهذا على مذهب نافع.

- رغم انتشار الوقف الهبطي في بلاد المغرب إلا أنه لم يسلم من الاعتراضات، ومن بين الذين انتقدوه بحدّة عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري في كتابه (منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي).

- اعتمد الهبطي في وقفه على المعاني الخفية.

- كان الهبطي متبعا لا مبتدعا في اختياراته المدروسة.

هوامش البحث:

[1]انظر: أبو عبد الله السجاوندي، (1427هـ)، علل الوقوف، تح: محمد العيدي، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط 2، ج 1، ص 3.

[2]انظر: الشريف الجرجاني، (1403هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ص253. وانظر أيضا: أبو البقاء الكفوي، الكليات، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 940.

[3] أحمد بن عبد الكريم الأشموني، (1422هـ)، منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، تح: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ص 24.

[4] ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، ج 1، ص240. انظر أيضا: عبد القيوم السندي، (1415هـ)، صفحات في علوم القراءات، المكتبة الأمدادية، ط1، ص 267.

[5]انظر: ابن الجزري، النشر، ج1، ص240.

*ولمعرفة المزيد عن صلة علم الوقف والابتداء بعلوم العربية وعلاقته بالنحو انظر: منصوري الجابري ، (فيفري 2019)، المظاهر النحوية وآثارها الدلالية على الوقوف والابتداءات الهبطية – سورة يوسف أنموذجا –، رؤى فكرية، جامعة سوق أهراس، الجزائر، العدد التاسع، ص 108-109.

[6]يونس علي يونس، (2011)، مقدمة في الوقف والابتداء مصطلحاته وعلاقته بالنحو، دراسات في اللغة العربية وآدابها، سمنان، إيران، العدد الرابع، ص 131.

[7]المرجع نفسه، ص 132.

[8] أبو جعفر النحاس، (1413هـ)، القطع والائتناف، تح: عبد الرحمن المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ط 1، ص 19.

[9]انظر: ابن الجزري، النشر، ج 1، ص 230- 231. وانظر أيضا: أحمد القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، السعودية، ج2، ص506-507.

[10] عبد الفتاح المرصفي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، السعودية، ط2، ج 1، ص 392- 393.

[11] أبو زكريا النووي، (1414هـ)، التبيان في آداب حملة القرآن، تح: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط 3، ص 115.

[12]انظر: اعراب سعيد ، (1410هـ)، القراء والقراءات بالمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، ص 176- 177.

[13] انظر: المرجع نفسه، ص 177، وانظر أيضا: إبراهيم الدوسري، (1429هـ)، مختصر العبارات لمعجم مصطلحات القراءات، دار الحضارة للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، ص140. وانظر أيضا: محمد بن محمد مخلوف، (1424هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، ج1، ص401.

[14]اعراب سعيد، القراء والقراءات بالمغرب ، ص 182.

[15]انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج 1، ص 238.

[16] ابن الصديق الغماري، منحة الرؤوف المعطي ببيان ضعف وقوف الشيخ الهبطي، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ص 11.

[17] المرجع نفسه، ص 11.

[18] انظر: المرجع نفسه، ص 12.

[19] انظر: محمد بن أحمد القرطبي، (1384هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط 2، ج 1، ص 399. وانظر أيضا: ابن عطية الأندلسي، (1422هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 144.

[20] انظر: جمال الدين بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1422، ج 1، ص 65. وانظر أيضا: ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 1، ص 144.

[21]انظر مثلا: ابن الجوزري، زاد المسير في علم التفسير، ج 1، ص 65. وانظر أيضا: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 1، ص 144.

[22] يحي بن زياد الفراء، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط 1، ج 1، ص 36- 37.

[23] محمد بن علي الشوكاني، (1414هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، ط 1، ج 1، ص 101.

[24] النحاس، القطع والائتناف، ص 58.

[25] الراغب الأصفهاني، تفسير الراغب الأصفهاني، تح: عادل بن علي الشِّدي، دار الوطن، الرياض، السعودية، ج 1، ص 191.

[26] أبو منصور الماتريدي، (1426هـ)، تأويلات أهل السنة، تح: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 451.

[27] محمد الأمين الهرري، (2001)، تفسير حدائق الروح والريحان، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ج 1، ص 350- 352.

[28] المرجع نفسه، ج 1، ص 352.

[29] نصر بن محمد السمرقندي، (1413هـ)، بحر العلوم، تح: علي معوض وعادل الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 119.

[30] ابن عطية، المحرر الوجيز، ج 1، ص 144.

[31] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 7.

[32] المرجع نفسه، ص 8- 9.

[33] انظر: النحاس، القطع والائتناف، ص 71.

[34] انظر: بدر الدين الزركشي، (1957)، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب، القاهرة، مصر، ج1، ص 365.

[35] انظر: ابن جزي الكلبي، (1416هـ)، التسهيل لعلوم التنزيل، تح: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط 1، 1416، ج1، ص 91. وانظر أيضا: أبو البقاء عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن، تح: علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، مصر، ج 1، ص 95.

[36] ابن الجزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص 91.

[37] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 9.

[38] انظر: الشوكاني، فتح القدير، ج 1، ص 135.

[39] انظر: ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (1418هـ)، تح: محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 95.

[40] أبو الحسن الخازن، (1415هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 1، ص 62. وانظر: أبو الحسن الماوردي، النكت والعيون، تح: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 1، ص 162.

[41] انظر: شهاب الدين الألوسي، (1415هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، ج 4، ص 4.

[42] انظر: أبو عمرو الداني، (1422)، المكتفى في الوقف والابتدا، تح: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، ط 1، ص 29. وانظر: النحاس، القطع والائتناف، ص 91.

[43] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 10.

[44] انظر: الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص 29. وانظر: الأشموني، منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، ج 1، ص 98.

[45] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 10.

[46] انظر: مكي القيرواني، الهداية إلى بلوغ النهاية، (1429هـ)، تح: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط 1، ج 1، ص 690. وانظر أيضا: أبو إسحاق الثعلبي، (1422هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بيروت، ط 1، ج 2، ص 129.

[47] أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (1420هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، ج 4، ص 264.

[48] عبد الفتاح القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص 48.

[49] الألوسي، روح المعاني، ج 1، ص 493.

[50] زكريا الأنصاري، المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، (1405هـ)، دار المصحف، مصر، ص 19.

[51] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 10.

[52] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 99. وانظر أيضا: العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج 1، ص 179.

[53] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، (1420هـ)، تح:صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج 2، ص 440.

[54] انظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 440.

[55] انظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 440.

[56] المصدر نفسه، ج 2، ص 440.

[57] انظر: محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (1997)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ج 1، ص 501.

[58] الغماري، منحة الرؤوف المعطي، ص 11.

[59] انظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، (1420ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 3، ج7، ص 93. وانظر أيضا: الألوسي، روح المعاني، ج 2، ص 55-56.

[60] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 385.

[61] جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (1407ه)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 3، ج 1، ص 325.

[62] الألوسي، روح المعاني، ج 2، ص 55.